مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (1)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (1) 2018

مفهوم "الطيف" في فلسفة جاك دريدا بين الإقصاء والاستحضار

الدكتورة إنصاف حمد*

مجد سعد الدين السليمان**

(تاريخ الإيداع 8 / 2 / 2018. قبل للنشر في 22 / 2 / 2018)

□ ملخّص □

هذا البحث هو مقاربة تفسيرية ونقدية لإحدى مقولات الفلسفة التفكيكية لدى "جاك دريدا"، وهي مقولة "الطيف"، يُركّز أولاً على محاولة تعريفها وإيضاح المعاني التي يُمكن أن ترد بها داخل نصوص دريدا، ثمّ يُضيء على موقعها وأهميتها بالنسبة لكليّة الممارسة المنهجية في التفكيكية الدريدية، وفي مرحلة ثالثة يعمل هذا البحث على تقديم صورة توضيحية عن تباين موقف دريدا بخصوص مفهوم الطيف الذي تدلّ عليه هذه المقولة بين الإقصاء والاستبقاء وكيف يُمكن تأويل موقف "دريدا" بهذا الخصوص، وأخيراً يُقدّم هذا البحث مقاربة نقدية للدور الوظيفي لهذه المقولة في فلسفة "دريدا".

الكلمات المفتاحيّة: الطيف – التفكيك – المايوتيك – الأرواحيّة– التعزيم

* مدّرس – قسم الفلسفة – جامعة دمشق– دمشق– سورية .

** طالب دراسات عليا(ماجستير) – قسم الفلسفة – جامعة دمشق – دمشق – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (1)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (1) 2018

The concept of "spectrum" in Jacques Derrida's philosophy of exclusion and evocation

Dr. Easaf Hamad*
Majd Saad Al-Din Al-Sulaiman**

(Received 8 / 2 / 2018. Accepted 22 / 2 / 2018)

□ ABSTRACT □

This research is an interpretive and critical approach to one of Jacques Derrida's theories of deconstructive philosophy, the term "spectrum", which focuses first on trying to define and clarify the meanings that can be contained within Derrida's texts, and then sheds light on its location and importance for the School of Methodological Practice , And in a third stage, this paper presents an illustration of Derrida's divergence regarding the concept of the spectrum that this argument indicates between exclusion and retention and how Derrida's position can be interpreted in this regard. Finally, this research presents a critical approach to the functional role of Derrida's philosophy .

Key words : Specter – deconstruction –maieutic – animism - induction

*Professor – philosophy department– Damascus university– Syria.

**Postgraduate student, Philosophy Department, Faculty of arts And Humanities , Damascus university, Damascus, Syria

مقدمة:

تحفل فلسفة الجزائري \الفرنسي "جاك دريدا **JacquesDerrida**" بكثير من الإثارة والتشويق النابعين "أولاً" من خصوصية الطابع البنائي لنصوصه فاقدة الاتساق بمعناه الشكلاني والسردي، والذي كان –ونعني الاتساق– سمة غالبة وربّما شرطاً لازماً وقبلياً لأهلية أي طرح فلسفي ومشروعية مقولاته، وبالتالي كانت هذه السمة هي ما يكفل لأية فلسفة بطاقة عبورها واصطفافها إلى جانب سابقاتها من فلسفات، وهذا إن لم يكن بالقطع مطلقاً فهو بحساب النسبة على امتداد تاريخ الفلسفة بين الفلسفات التي جعلت من الاتساق السردي شرطاً وضرورةً وأخرياتها التي شذّت عن هذه القاعدة وهذا المعيار.

و"**ثانياً**" تستمد فلسفة "**دريدا**" إثارتها من حداثة مقولاتها وطابعا ممتنع التعريف بمعناه المنطقي، بالإضافة إلى سمتها اللزجة –إن جاز التعبير– التي تجعلها عصيّة على القبض، واستغلاقها على الفهم؛ لأنها تمتلك بحسب التعريف الاشتراطي الذي يُقدّمه "دريدا" لها قابلية دائمة للانزياح في مجال ممتدّ بين معنيين متناقضين، وهي تعمل دلالياً على طول هذا المجال، حتى تُنجز الوظيفة المنوطة بها في بيان استحالة ضمان ثبات المعنى داخل أي نصّ أو نسق باعتباره نسيج علاقات تبادلية بين مكوناته، وهذه العلاقات مفتوحة دائماً على احتمالات لا نهائية وإمكانات قراءة وتأويل يُمكن أن تكون في كلّ مرّة جديدة كلّ الجدّة عن سابقاتها.

و"**ثالثاً**" فإنّ مقولات فلسفة **دريدا** ليست أفعالاً ولا هي أسماء أو صفات؛ بل هي تنوس بين هذين وذاك، "**فدريدا**" وبوحي وتأثّر من أدب "جان جينيه **Jean Genet**"، الذي كان على ما يروي " **دريدا**" في كتابه "**الكتابة والاختلاف**" : **(يرفع النعوت التي بها يسمّي "أبطاله" إلى مقام الإسمانية وإلى مستوى "جواهر" فريدة مضادّة)**[1].

ولذلك فقد أعطى "دريدا" لمقولاته، على طريقة "جينيه" شكل الاسم وطاقة وحركية الفعل بالإضافة إلى وظيفة الصفة ودلالتها، حتى تكون هذه المقولات قادرة في كلّ مرة على رجّ محتوى النصّ المعمول على تفكيكه وإزاحته عن مركزه وقلب تراتبيته وخلخلة نظامه.

وهذا البحث، هو محاولة لإلقاء الضوء على مقولة "الطيف **Specter**" والتعريف بها لدى دريدا، وهو أيضاً مقاربة لبيان محلّها ودورها داخل هيكلية الفلسفة الدريدية، وفي أفق هدفها الذي ترنو إليه وشعارها الذي تجعله غاية نهائية تقصد بلوغها وهو "تفكيك الميتافيزيقيا" بكل تجلّياتها التاريخية والعقلية في الفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي؛ خاصةً أنّ لهذه المقولة من بين مقولات دريدا سمة خاصّة تُثير دهشة أي قارئ لفلسفة دريدا أو باحث فيها، وتفرض عليه امتحان مشروعية استخدامها من قبل دريدا أولاً، ثمّ محاولة فهمها وتأويل تبايناتها الوظيفية داخل النصّ الدريدي ثانياً، وصولاً إلى تقديم تفسير ممكن بخصوصها يُوضح ما إذا كانت هذه المقولة إحدى المداميك الضرورية التي لا غنى عنها في الاستراتيجية التفكيكيّة لدريدا أو كانت مقولة زائدة يُمكن قصّها وإقصائها دون أن تتأثّر هذه الاستراتيجية بغيابها.

أهمية البحث وأهدافه:

تتأتّى أهمية هذا البحث من أنّه يُحاول تسليط الضوء على مقولة "**الطيف**" في فلسفة "**جاك دريدا**" كإحدى المقولات البنائية المكونة لاستراتيجيته في فهم وتفكيك تاريخ الميتافيزيقيا الغربية على صُعد الفلسفة والسياسة ونماذج

---

[1] **دريدا، جاك. *الكتابة والاختلاف*.ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 2000م، ص129، " من الهامش".**

العقلانيات التي سادت تاريخ هذه الميتافيزيقا، خاصةً أنّ هذه المقولة لم تُعطَ القدر الكافي من الاهتمام في الدراسات العربية التي قُدّمت عن فلسفة دريدا على الرّغم من كثرتها قياساً بما قُدّم من دراسات عن أقرانه وفلاسفة جيله.

لذلك فإنّ أحد أهم أهداف هذا البحث هو محاولة بيان الدور الوظيفي لهذه المقولة ومكانتها في تفكيكية دريدا، بالإضافة إلى دورها في فهم الأليّة والصورة التي يعمل "**دريدا**" على دحضها وتفنيدها عن الفكر الفلسفي الغربي، **هذه الصورة**، التي استطاع بها هذا الفكر أن يدّعي لنفسه تحقيق تمام الاكتمال والتمام، وبلوغ قمّة العقلانية ونهاية التاريخ؛ وهذا كلّه بحسب الطريقة التي يفهم بها "دريدا" هذا الفكر وطبيعته الكولنيالية.

منهجية البحث:

يعتمد هذا البحث على منهجين أساسيين هما "**المنهج الهرمنيوطيقي**" الذي نعتمده ها هنا في سبيل فهم وتأويل النصوص التي وُظفت فيها مقولة "**الطيف**" وعملت داخل نسيجها سواءً بشكل صريح أم مُضمر؛ وذلك تحقيقاً لفهم المعاني المتبدّلة لهذه المقولة داخل المتون التي نصّها "**دريدا**" أو فكّكها.

أمّا المنهج الثاني، فهو "**المنهج التفكيكي**" بهدف ممارسة منهج دريدا على نصوصه ومقولاته، لبيان مدى الاتساق المنهجي في فلسفته، ومحاولة الكشف عما إذا كان "**دريدا**" قد سقط في ذلّة منهجية أو إذا ما كانت غايته الفلسفية وموقفه من إرث الفكر الفلسفي الغربي قد ساقته إلى التناقض مع مسلّماته المنهجية.

النتائج والمناقشة:

أولاً: "الطيف"... محاولة في التعريف:

"الطيف" لغةً،هو بحسب "**المعجم الوسيط**": **(الخيال الطائف. وهو ما يراه النائم. و–الجنون. و–الغضب. و–قوس قزحٍ وألوانه، والجمع أطياف)** [1]، أمّا في "**شمس العلوم**" فقد ذُكر: **(الطّيف هو ما طاف بالإنسان من خيال يخيل في نفسه أو يراه في النوم... وقال أبو عمرو بن العلاء: طيفٌ من الشيطان أي وسوسته... وقيل إنّه الفزع)** [2]، وذُكر في "معجم الرائد": *الطيف هو الخيال، الشبح، وهو ما يراه النائم وهو الغضب والجنون*[3].

وإذا ما رجعنا إلى نصوص "دريدا" وخاصةً إلى كتابه **أطياف ماركس Marx Specters** نلحظ أنّ "مقولة الطيف تتردّد لديه بكل هذه المعاني دون أن ينطبق عليها واحداً منها بطريقة تُعادل تماماً استخداماتها الوظيفية في فلسفة دريدا؛ لأنّ لها إحالة دلالية إلى معنى يفيض دائماً عن أيّة إمكانية للإحاطة أو الاحتواء، الأمر الذي يسمح بادّعاء القول: أنّه كما أنّ لهذه "**المفردة**" طائفة من المعاني في المعاجم اللغوية؛ فإنّ لها السمة ذاتها في متن النص الدريدي، فتُشكّل لذلك قوس قزح من المعاني التي تتزاح بينها وتتناوب عليها دون أن تتحقّق تامةً في إحداها، تحقيقاً ربّما لغايات منهجية أو نقدية...، يقول دريدا: **(إنّ هذا الشيء الذي سوى شيء، هذا الشيء غير المرئي بين**

---

(1) (انظر) مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. ط2، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1972،"مادة الطيف"

(2) (انظر) الحميري، نشوان بن سعيد. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم. دار الفكر المعاصر، بيروت، 1999، "مادة طاف باب الطاء".

(3) (انظر) مسعود، جبران. معجم الرائد. ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص528.

ظهوراته ،إنّنا نراه لحماً وعظماً حين يعود إلى الظهور . وإنّ هذا الشيء ينظر إلينا مع ذلك، ويرانا من غير أن نراه حتى عندما يكون هنا . إذ يوجد هنا تباين طيفي يقطع كل مرآوية)[1].

وفي محلّ آخر يكتب "دريدا" عن الطيف: **(هو الملموس الممتنع لمسه لجسم خاص من غير لحم، ولكنّه يكون دائماً جسم شخص بوصفه جسماً لشخص آخر ... إنّ هذا الشخص الآخر الطيفي لينظر إلينا وإننا لنشعر أنّنا به لمنظورون، وذلك خارج كل آنية، وحتى قبل كل نظرة تخرج عنّا وبعيداً عنها)**[2].

فالطيف الذي يُحدّثنا "دريدا" عنه، كما يتضّح ممّا سبق، هو ممتنع عن الملاحظة، وغير قابل لأي شكل من أشكال العيان الحسي المباشر، فهو "يرانا من غير أن نراه،... ونحن به منظورون"، فإذن إنّ أمر هذا "**الطيف**"... هذا "**الشيء**" ذو الطبيعة غير الشيئية... ،هذا الموجود غير المكاني؛ لكنّه مع ذلك هو الحاضر مُطلقاً في كل آن وفي كل نظرة لذات تحاول أن تتأمل واقعها أو واقعة ما أياً كانت طبيعتها ومحل تصنيفها الإيبستيمي، هذا "**الطيف**" كما يُقدّمه "دريدا" يستدعي توقفاً ومن ثمّ تأويلاً للرسوم التعبيرية التي يُقدّمها "**دريدا**" عنه، حتّى يكون لهذا المفهوم حدّاً أدنى من المعقولية مع كلّ هذا الصفات المتعارضة التي تجتمع فيه بموجب الوصف الدريدي، ولتحقيق هذا لا بدّ من بيان ارتباط هذا المفهوم بكليّة فلسفة "دريدا" بوصفها محاولة لتقويض تاريخ الميتافيزيقيا الغربية، أو هي على أقل تقدير خطوة كان لا بدّ منها على طريق تحقيق هذا الهدف.

ثانياً: مفهوم الطيف وعلاقتة بتفكيك الميتافيزيقا عند دريدا:

يسم "دريدا" نمط العقلانية الذي ساد تاريخ الميتافيزيقيا الأوروبية، بالنمط الكولنيالي؛ لأنّ ما تدّعي أوروبا تقديسه من قيم العقلانية والتحرّر وقبول الآخر، بالإضافة إلى تمجيد مبادئ الاختلاف وإعلائها، هذا كلّه يبقى –في نظر دريدا– ادّعاءً أجوفاً، فحقيقة الأمر: أنّ كلّ هذه المفردات هي تورية مقصودة لخطاب العقل الأوروبي الذي ظلّ يُمارس بحسب "دريدا" منذ فجر الحداثة وحتّى اليوم امتهاناً مقصوداً وممنهجاً لأطروحات الإنسانية والتعدّد، فأوروبا دأبت على امتداد تاريخها منذ المرحلة اليونانية تعيد إنتاج أشباحها "فكر مفكريها"، وهذا هو ما ينعته دريدا بمركزية اللوغوس "الصوت "وإعادة مركزته، والذي من خلاله تكرّس في المقال الفلسفي الحداثي وما بعد الحداثي مفهوم التكرار والدائرية في الزمن، إنّه الإيقاع نفسه ،المفهوم ذاته ،سجننا نحن بالنسبة لهم كآخرين ، هذا المفهوم وهذا الإيقاع اللذان يفترضان أنّنا نحن التابعين باعتبارنا "**أبناء أصحاب الأقدام السوداء**"• يجب أن نتشكل وفقاً لهذا الفكر ولمنظوره متماهين معه مع بقائنا دخلاء عليه.

وآية هذا الادّعاء الذي يحاول فلاسفة الغرب تسويقه بواسطة خطابهم االميتافيزيقي، هو دفعنا نحن الآخرون بالنسبة لهم صوب الإذعان بأنّ: العقلانية هي معجزة الفكر الفلسفي الغربي منذ "ربيع الحضارة اليونانية" وحتى اليوم، وهي إبداعه الأصيل المنقطع تماماً كما يزعم ميتافيزيقيو الغرب عن أيّة سوابق تاريخية؛ بل إنّ الأمر يتعدّى ذلك إلى حدّ الزعم أنّ بين لغة الميتاقيزيقيا الأوروبية ومفهومي اللوغوس والعقل علاقة هوية ومحايثة وتماثل.

وإذ ذاك، فإنّ "دريدا" يعتقد أنّ تاريخ الميتافيزيقا الأوروبية تحكمه سلسلة متواترة من الممارسات والطقوس الأرواحية **Animism** ولذلك فإن فعل التفلسف الغربي إذا ما استثنينا حالات قليلة، هو كما يصفه "دريدا" أشبه

---

(1) دريدا، جاك. *أطياف ماركس*. ترجمة: منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2006، ص30.

(2) م. س، ص 31.

• صفة كانت تطلق على الفرنسيين القادمين إلى باريس من خارجها، أو الفرنسيين المهاجرين إلى فرنسا وهم من أصول غير فرنسية كاليهود والجزائريين والمغاربة والأفارقة. " انظر، كتاب جان غراندان "المنعرج الهرمنيوطيقي".

ب**(العمل الحدادي الذي يرعى الأحياء خلاله الأموات ويُمثّلونهم، ويشغلون أنفسهم بهم، ويتركونها للأموات فيرعونهم، وينشغلون بهم، ويُمثّلونهم، ويتكلّمونهم ويتكلمون معهم، ويحملون أسماءهم ويستولون على لسانهم)**[1].

ومن هنا كانت كل الفلسفة وكل الثقافة الأوروبية، هما نتاج **(منطق موروث لأجيال من الأشباح)**[2]، كما يروي "دريدا"، الذي يذهب إلى أنّ ضرورة تجديد الفلسفة وإعادة الاعتبار لها، تستلزم من بين ما تستلزمه، تحرير الفكر الفلسفى من أوثانه الذي بقي أسيرها، والتي بقيت أطياف فلاسفتها السابقين أمثال سقراط وأفلاطون وديكارت وهيغل... وغيرهم، حاضرة دائماً تجد في كلّ مرّة واحداً أو عدداً من الفلاسفة الذين يتقمصونها ويتمثلون مخرجاتها بوصفها بداهات تفرض سلطانها على كلّ عقل لأنها ظلّت في نظرهم وبموجب المقاييس المنهجية التي اعتمدوها وجهدوا في تبريرها، الدّال المباشر على حضور اللوغوس في التاريخ منذ لحظة انبلاجه مع المعجزة اليونانية وحتّى لحظة تمامه واكتماله في فلسفة "هسرل"، ففلاسفة الغرب ما فتئوا يدورون حول إرثهم المزعوم إبداعاً أصيلاً ويعيدون إنتاج تراثهم وحضرنته حتّى أيامنا هذه.

بل إنّ الأمر تعدّى هذه الحدود، فلم يبقَ عند مستوى استنهاض أطياف السابقين وتقمصّهم؛ بل تعدّاه كما يرى "دريدا" إلى مستوى أشدّ خطورةً بمفعوله على علم وفلسفة وحضارة عالم اليوم، حين بلغ حدّ الزعم **(أنّ الأنظمة الفكرية التي قام عليها الفكر الغربي "الفلسفة والعلم" والتي هي مجموعة الإشارات تنكّرت لكونها إشارات عرفية اصطلاحية وصارت تدّعي لنفسها حق تأسيس وقائع خارجية وطيدة)**[3].

ولذلك نجد أنّ "دريدا" لمّا استشعر جسامة خطر هذه الممارسة الثقافية وطابعها الكولنيالي، وسمتها الأرواحيّة، فما كان منه إلّا أن يأخذ على عاتقه مهمة البدء بإماطة الحجاب وكشف النقاب عن "**الفضاء الافتراضي للطيفية**" التي تركت العقل الفلسفي أسيراً لدائرة مُغلقة من مفاهيم الأشباح الموروثة، ففضل "دريدا" على معاصريه من فلاسفة ما بعد الحداثة كان لأنّه –بحسب كاظم جهاد مترجم كتابه "الكتابة والاختلاف"– **(هو، من قرع نواقيس نهاية الميتافيزيقا وعلّمنا أن نسلك معه سلوكاً "استراتيجياً" يقوم على التموضع داخل الظاهرة، وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل. أي أن نقطع شوطاً مع الميتافيزيقا، وأن نطرح عليها أسئلة تُظهر أمامها من تلقاء نفسها عجزها عن الإجابة، وتُفصِح عن تناقضها الجوّاني)**[4].

فالسبيل برأي "دريدا" للتحرّر من ثقل موروث فلاسفة الماضي، ومن محاولات منظرو المركزية الأوروبية إعادة إحيائهم وحضرنتهم، لا يكون إلّا عبر بيان الخطل الأصلي لهذا الفكر النخبوي الإقصائي في أصل تكوينه، وكذلك كشف العقم المُفجع لهذه المحاولات في إنتاج فكر فلسفي يكون قميناً بمواجهة وحلّ مُشكلات العالم الثقافي–السياسي المعاصر.

---

(1) م. س، ص219 .

(2) دريدا، جاك. *أطياف ماركس*، ص206.

(3) عبد الله، عادل. *التفكيكية... إرادة الاختلاف وسلطة العقل* . ط1، دار الحصاد، دمشق، 2000،ص95.

(4)دريدا، جاك. *الكتابة والاختلاف* . ص 47.

أمّا الوسيلة الناجعة لتحقيق ذلك، فلن تكون –بحسب دريدا–إلّا عبر "**التفكيك**" الذي لا يمكن تعريفه بكونه سوى **(إستراتيجية في التعرية والغربلة والعزل، إنّه دهاء وحنكة ومهارة في التحليل، تستهدف الطبقات التحتية، أو بالأحرى الملتحمة والمتشابكة)**[1].

فالتفكيك الذي يقترحه "دريدا" أسلوباً في التفلسف ومنهجاً في قراءة التراث الفلسفي السابق، تقع عليه مهمة كشف ومن ثمّ تقويض الأصول "**النقلية**" • للفلسفة الأوروبية، والتي قد ثبت دورها السلبي في إعاقة فتح أفق آفاق التفلسف، وتعطيل الفلسفة عن أداء وظيفتها في تحسين شروط حياة الإنسان في عالم ما بعد الحداثة التقني المأزوم.

ولذلك فإنّ نقطة البدء الضرورية التي يقترحها "دريدا"، هي: حركة رجوع اضطراري إلى نصوص الفلسفة، وبخاصّة تلك التي اكتسبت نتيجة القدم والشيوع صفة النصوص المقدّسة، والتي ظلّت بعدما استقرت في وعي مجموع مُريدى الفلسفة، بفعل عملية تحديثها وعصرنتها وانعاشها الدائمة والمستمرّة، تحت هذه الصفة، ظلّت بمنأى عن أي مماحكة نقدّية، تمتحن اتساقها ومردوديتها القيمية والحضارية، وذلك عبر محاولة سكنى هذه النصوص والإقامة فيها، لكشف حاكمية أطياف السابقين عليها في خطوة أولى، ثمّ العمل على كسر طوقها وتحطيم نيرها، باقتراف جريمة " **قتل الآباء عمداً**"• في سبيل إعادة انهاض الفلسفة وبثّ الروح فيها من جديد.

يقول "دريدا": **(حركات التفكيك لا تتعامل مع الأبنية من الخارج. أنّها لا تكون ممكنة وفعّالة ولا تُحكم ضربتها إلّا بسكنى هذه الأبنية، ... وبالعمل بالضرورة من الداخل مُستعيرين من البنية القديمة كلّ المصادر الاستراتيجية والاقتصاديّة لعملية القلب)**[2].

ثالثاً: دريدا مُتردّداً في "تعزيم"• أطياف الفلاسفة السابقين بين الطرد والاستبقاء:

تظهر مقولة "الطيف" المضمرة غير المصرّح بها في معظم مؤلفات "دريدا" علانيةً للمرّة الأولى، في كتاب "دريدا" **أطياف ماركس** بوصفها محلّا لضرورة تفكيكية وموضوعاً لاستنطاق لا بدّ منه ولا محيد عنه، إذ يستهلّ "دريدا" كتابه هذا بالعبارة التي يفتتح فيها "ماركس" بيانه الشيوعي، حين يُصرّح: **(هناك شبح "طيف" يجول في أوروبا: هو شبح الشيوعية. وقد اتحدت كلّ قوى أوروبا العجوز في'' حلف مقدّس'' لملاحقته والتضييق عليه)**[3].

وهدف "دريدا" من اختيار هذه البداية هو وصف حال فلاسفة البرجوازية الغربية المعاصرة الذين ما زالوا يخشون طيف ماركس وخطر "بيانه الشيوعي" المُحفّز للتمرد بعد ما يزيد عن مئة عام على رحيل ماركس، وما ينوف عن عقدين على انهيار تجربة الاتحاد السوفياتي الذي تبنّى مؤسسوه عقيدة "ماركس" السياسية والاقتصادية، فهؤلاء الأوربيون مازالوا ممسوسين بشبح "ماركس" كما يصفهم "دريدا"، وهم مستمرّين في تسخير كل طاقاتهم العقلية وذخائرهم المفاهيمية وماكيناتهم الإعلاميّة والتقنية في استنهاض العداء "لروح ماركس"؛ لأنّهم جميعاً أسرى فوبيا "ماركس"، وأسرى جنونهم

---

(1) الولهازي، شكري. *دريدا وتفكيك الميتافيزيقا*. مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي بيروت؛ باريس، ع 140–141، ربيع –صيف 2007، ص87.

• إشارةً إلى التعلّق الأشبه باللاهوتي لفلاسفة الغرب بإرثهم الفلسفي والحضاري، ومحاولاتهم الدؤوبة لإعادة إنتاجه بوصفه مطلقاً حاضر دائماً.

• تعبيراً من "دريدا" عن رغبته في ضرورة تحرير فلسفة ما بعد الحداثة من آثار فلاسفة الماضي التي تعوق النهضة الفلسفية.

(2) دريدا، جاك. *في علم الكتابة*. ترجمة: أنور مغيث؛ منى طلبة، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص91.

• التعزيم بحسب "معجم المعاني الجامع" هو، ما يُستعان به من كلام لشفاء مريض، أو لطرد الأرواح الشريرة أو غير ذلك.

(3) ماركس، كارل؛ انجلس، فريدريك. *البيان الشيوعي*. ترجمة: خالد بكداس، ط4، دار الفارابي، بيروت، 1957، ص21.

ممّا قد يكون من ترابط بين "طيف" ماركس، وحركات الرفض التحرّرية التي بدأت تشهدها الساحة الأوروبية والعالمية ضدّ سياسات الهيمنة وثقافة الاستحواذ التي تنتهجها دول المركز البرجوازي.

ف"ماركس" بالنسبة "لدريدا" كما يقول في حواريته مع اليزابيث رودينيسكو "**ماذا عن غد** " كان سرّه الذي ظلّ مكتوماً قرابة ثلاثين عاماً ويزيد، "ماركس" هو جذوة التمرّد وقدح الثورة التي ظلّت هاجعة في نفس "دريدا"، وهو ، "**الطيّف**" الذي ما فتئ يراوده ويقضّ مضجعه و"دريدا" يعيش حالة فساد العالم وانحلال القيم فيه، ويتأملّ بتهكّم ممزوج بالأسى، شيوع أطروحات من مثل: "صدام الحضارات" أو "نهاية التاريخ" أو "موت الإنسان"، حتّى أنّ كتاب "دريدا" "**أطياف ماركس**" أو كما يرد في بعض الترجمات " **أشباح ماركس**"، كان ممّا كان من أسباب كتابته : ***استجابة "دريدا" لإرث ماركس ولنداء المسؤولية تجاهه، وتجاه المسيرة التي افتتحها*** [1].

والواضح ممّا سبق، أنّ "دريدا" الذي يتبنى أطروحة: أنّ تاريخ أوروبا هو تاريخ أطياف، وأنّ العقل الأوروبي شُكّل محكوماً وأسيراً لهذه البنية الطيفية، وأنّ هذا العقل يدور فيها ويعجز عن الخروج منها، **هذه الأطروحة**، التي سمحت لدريدا أن يزعم بأنّ فلسفته هي دعوة لتحرير العقل الفلسفي الغربي من انغلاقه على إرثه الثقافي، كما هي تحريض لشق عصا الطاعة على موروثات الأشباح، نجده هو نفسه –أي دريدا– أمام فلسفة "ماركس وإرثه شخصاً آخر ينقض مسلّمته التي يبني عليها، والتي سمحت له أن يخطّ مئات الصفحات في نقد الممارسات الأرواحيّة والطابع النقلي للفلسفة الغربية بدءاً من "سقراط" الذي يصفه "دريدا" ب" **أولّ وأكبر المعزّمين** " وينعت *منهج المايوتيك*• **Maieutic** *"الجدل" السقراطي، بأنّه التعزيم الأكبر الذي يتجلّى عبر الإجراء الذي يعرضه سقراط من خلال الانغماس في بحث مشترك ، والسعي لمعرفة الذات عبر المرور بالآخر ولغته* [2]. خاصّةً أنّ موقف "دريدا" هذا امتد على معظم مساحة الفكر الفلسفي الغربي من سقراط إلى أفلاطون وأرسطو وكذلك فلسفة العصر الوسيط المسيحي وحتى الفلسفة الحديثة لدى "ديكارت" و"روسو" وهيغل" وصولاً إلى الفلسفة المعاصرة في نتاج "سوسير" و"هسرل" و"هيدغر"، الأمر الذي يدفع ضرورةً إلى التساؤل:

لماذا مثّل "ماركس" من وجهة نظر "دريدا" استثناءً بالنسبة لكلّ الفلاسفة السابقين؟ وهل يُمكن بناءً على ما يسوقه "دريدا" من حجج بهذا الخصوص تبرير تردّده وتأرجحه بين موقفين هما طرد "الأطياف" أحياناً واستبقائها أخرى؟

يعتقد "دريدا" الذي يقترح "**علم الكتابة Grammatology**" مخرجاً للفلسفة من أزمتها، أنّ فضل "ماركس" على غيره من الفلاسفة، هو أنّه يُمثّل فيلسوف "الكتابة" بامتياز؛ إذ **(كانت كتابة ماركس على وجه العموم هي المكان الذي تتكثّف فيه اللا مرئيات من المخلوقات، فتتصلّب، وتتماسك، وتصبح مرئية. وهي لأنّها كانت على ذلك قادرة، فقد استجرّت الشبح من غيبوبة العدم وجاءت بالطيف من وراء حجاب اللا رؤية إلى مساحة المشاهدة وحضور المعاينة)**[3]، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية، فإن ما يُميّز إرث "ماركس" هو طابعه الإنسانوي، ذلك أنّ "ماركس لم ينطلق في فلسفته من نزعة قومية أو دينية أو عرقية، ولا حتّى نخبوية وفلسفته تصلح لهذا، أن تكون ناموساً للمجتمع العالمي، يقول دريدا: **(إنّ كل البشر فوق الأرض جميعاً هم اليوم، بمعنى من المعاني ورثة ماركس والماركسية، سواءً أرادوا ذلك وعلموه**

---

(1) **(انظر) دريدا، جاك.** ***أطياف ماركس*****، ص176.**

• **المايوتيك: فن توليد الأفكار السقراطي" انظر كتاب غاستون مير** *أفلاطون"*، **ص 102.**

(2) **(انظر) دريدا، جاك.** ***صيدلية أفلاطون*****. ترجمة: كاظم جهاد، دار الجنوب، تونس، 1998، ص77.**

(3) **دريدا، جاك.** ***أطياف ماركس*****. " من مقدمة المترجم"، ص6.**

أم لا، وهذا يعني أنّهم، ... ورثة الفرادة المطلقة لمشروع –أو لوعد – ذي شكل فلسفي وعلمي. وإنّ هذا الشكل هو شكل غير ديني من حيث المبدأ، وذلك بمعنى الإيجابي. وهذا الشكل ليس أسطورياً، وإنّه إذن ليس قومياً – وذلك لأنّه بعيد عن التحالف نفسه مع شعب مختار، ليس ثمّة جنسية أو قوية ليست دينية أو أسطورية، ولنقل بمعنى واسع ليست "صوفية". ويبقى شكل هذا الوعد أو هذا المشروع شكلاً فريداً بالفعل)[1].

أمّا بالنسبة لما يتعلّق بشق السؤال، حول " تردّد دريدا وتأرجحه بين موقفين هما طرد "الأطياف" أحياناً واستبقائها أخرى"، فإنّه يُمكن أن يُفسّر برغبة دريدا – وهذا حال كلّ مذهب فلسفي – في أن ينزع عن كلّ فلسفة سابقة شرعيتها ويُخطّئ أصحابها، فيُقصي حضور أطيافهم وما لأفكارهم من تأثير، في مقابل هذا، فإنّه يعمل على الاستئثار بإرث "ماركس" ويستحضر طيفه تحت الادّعاءات السابقة، فيتمكّن وقد نصّب نفسه وريثاً لهذا الإرث، أن يعهد لفلسفته مسؤولية إنقاذ "العالم"، وبذلك يستطيع دريدا أن يرسم معالم جديدة لتفكيكيته ؛ باعتبارها فلسفة ثورية، تُريد تغيير العالم، بجعلها امتدادً لوعد الخطاب الماركسي بعالم عالي التنظيم تسوده ثقافة التسامح والإخاء، وهذا يتّسق مع خطاب دريدا الذي يُنذر فيه ب"حالة رعب العالم" والذي يقترب كثيراً من حيث المضمون من "البيان الشيوعي لماركس"، وكذلك الأمر يتّسق أيضاً مع اقتراح "دريدا" **(إنشاء أممية جديدة للنضال في وجه العلل العشر للنظام العالمي الجديد "البطالة ، إقصاء المنفيين ، الحروب الاقتصادية ، تهريب الأسلحة، النزعة الإثنية – على أساس الأرض والدم – سلطة الدولة الشبح ، المافيا – المخدرات ")**[2] .

رابعاً: "مقولة الطيف" في فلسفة "دريدا" ...مقاربة نقدية:

لعلّ أكثر ما يُحفّز المقاربة النقدية للاستخدام الوظيفي "لمقولة الطيف في فلسفة "دريدا" هو انزياحها الدائم دلالياً بين قيمتين مُتناقضين تتناوب عليهما بالتبادل، فهي تارةً تشي بمعنى ذو أثر سلبي على فعل التفلسف حين يستخدمها دريدا رفضاً لفلسفات وصفها بأنّها ذات طابع تُراثي نقلي نشد أصحابها منها تكريس مركزية "اللوغوس" في الفكر الأوروبي، وبالتالي فإنّ الاتجاه الدلالي لهذه المقولة بهذا المعنى وظيفته أن يكشف الطابع الكولنيالي للفلسفة الأوروبية والنزعة التمركزية فيها.

وأخرى نجد هذه "المقولة" تأخذ في نصوص دريدا أثراً إيجابيا، إذ تُوظف لتوحي بالحاجة الماسّة لطيف ماكس وبضرورة استنهاض كل ما يتّصل بالماركسية من نتاج، بما في ذلك اللينينية والغرامشية وأعمال ألتوسير... وغيرهم، وعليه فإنّنا لا نقف في نصوص "دريد" على استخدام واحد، أو تحديد إجرائي ثابت لهذه المقولة داخل متون "دريدا" وهذا يُعدّ المقاييس المنطقية ذلّة منهجية.

وبالقياس إلى ما سبق، فإنّ ما يُمكن استنتاجه هو أنّ لفلسفة "دريدا" طابع "أرواحي" وهي بوجه من وجوهها ذات سمة عرفانية، وهو يُمارس "تعزيماً" لأشباح الفلاسفة من خلال قراءته وتفكيكه لنصوصهم مرةً ليطرد أطيافهم ويُقصيها، وثانية ليتقمّصها ويمتثلها، وليخلص من هذا كلّه إلى حدّ ادعاء القول الذي يُعبّر عن حقيقة كلّ الفلاسفة والمُشتغلين بالحقل الفلسفي **(أنا تساوي شبحاً. وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ "أنا أكون" تعادل "أنا أكون مسكوناً")**[3].

أمّا من حيث ضرورة "هذه المقولة" بالنسبة لسلسلة الإجراءات التفكيكية وإعادة الوسم التي يُحاول "دريدا" إخضاع النصوص الفلسفية لها، وكذلك من حيث إمكان إبقاء هذه المقولة أو قصّها، فإنّ كثيراً من الباحثين المتأثرين

---

(1) م. س، ص174.

(2) دريدا، جاك؛ رودينيسكو، اليزابيث. *ماذا عن غد*. ترجمة: سلمان حرفوش، ط1، دار كنعان، دمشق، 2008، ص 175.

(3) دريدا، جاك. *أطياف ماركس*، ص250.

إيجاباً بفلسفة دريدا يعتقدون ضرورة هذه المقولة ووجوبها في إتمام الإجراءات المنهجية التي يقصد دريدا بلوغها بهدف ليّ النص المعمول على إزاحته عن المعنى الذي ترسّخ مُتواضعاً عليه في تاريخ الفكر الفلسفي، صوب رحاب تأويلات، أخرى، كثيرة ممكنة ومعنى مؤجّل إلى ما لا نهاية.

أمّا نُقاد "دريدا" فيعتقدون أنّ هذه "المقولة" شأنها شأن باقي مقولات تفكيكية دريدا، لا تُثمر أكثر من لعبة بلاغية لا طائل تحتها، تكشف النيّة الفلسفية الحقيقية لدريدا في بلبلة الخطاب الفلسفي، كردّة فعل عُصابية لواقع حياته الشخصية التي عاشها رحّالاً بين وطنه الأصلي الجزائر ووطنه المضيف فرنسا، كما عاشها هارباً من ديانته اليهودية ومُتعلّقاً بها معاً، لذلك فقد اصطنع لنفسه هذه المقولات ليُمارس من خلالها على ما يقول "جون سيرل" "**سوء فهم مُتعمّد للسلف**"، وليخلص "سيرل" إلى أنّ: **(التفكيك مجرد ممارسة لمجموعة من الحيل اللغوية والمنطقية لا تصل بنا إلّا إلى حصيلة من البلاغة الفارغة)**[1].

الخاتمة:

في نهاية هذه المقاربة البحثية لإحدى مقولات فيلسوف التفكيك "جاك دريدا" لا يسعنا إلّا أن نقول: أنّ "جاك دريدا" كان وما يزال أحد أكثر مثقفي ما بعد الحداثة حضوراً، نظراً لحداثة مقولاته إشكالية الطابع كثيرة الدلالة، وهذا ليس بالمعنى الإيجابي فقط، بل بالمعنى السلبي أيضاً؛ لأنّه يكاد يكون من المقطوع به، أنّه ما من قارئٍ حتى لو كان عابراً لنصوص "دريدا"، إلا ويسترعيه هذا الاسم، يستوقفه، يلزمه على إعادة النظر في ذاته، في إرثه في مخزونه الثقافي، وحتى في اعتقاده؛ بل أكثر من ذلك، في أكثر المفاهيم بداءةً لديه وأولية، هذا طبعاً إن تأثّر إيجاباً بنصوص وقراءات وبتفكيكات وكتابات جاك دريدا، أمّا والقارئ تأثّر سلباً بجاك دريدا وما كتب، فلا شك أن هذا الرجل يهزّه من الداخل يجرحه فيجترح _ أي القارئ _ صوته وقلمه استنفاراً لحساب ما يعتقده ثابتاً، أصلاً مقدّساً لديه .

فجميع من قرأوا "دريدا" كانوا إمّا موافقين لأسلوبه ومنهجه أو مخالفين له، أما أن يقرا المرء "دريدا" دون أن يُعلن موقفاً منه فهذا ما لم يحدث، لأن هذا الرجل يحسن هزّ الأساسات ويتقن اللّعب الحرّ في منطقة البين بين، يمتلك استراتيجية ومنهاج يجعلانه جيداً جداً في التعرية، في العزل، في نثر المعنى، في إظهار النقص في الضرب في العمق كما على السطح ، في المركز كما في الأطراف، ولعلّ هذا هو سرّ كل النقاشات والاختلافات التي أثارتها وتُثيرها نصوص "دريدا" ومقولاته التكوينية.

---

[1] **دريدا، جاك. *في علم الكتابة*، "من مقدمة أنور مغيث"، ص42-43.**

المصادر والمراجع المستخدمة في البحث:

1. دريدا، جاك. *أطياف ماركس*. ترجمة: منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2006.

2. دريدا، جاك. *الكتابة والاختلاف. ترجمة: كاظم جهاد*ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 2000م، ص129، " من الهامش".

3. دريدا، جاك. *صيدلية أفلاطون*. ترجمة: كاظم جهاد، دار الجنوب، تونس، 1998.

4. دريدا، جاك. *في علم الكتابة*. ترجمة: أنور مغيث؛ منى طلبة، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

5. دريدا، جاك؛ رودينيسكو، اليزابيث. *ماذا عن غد* . ترجمة: سلمان حرفوش، ط 1، دار كنعان، دمشق، 2008.

6. عبد الله، عادل. *التفكيكية... إرادة الاختلاف وسلطة العقل*. ط1، دار الحصاد، دمشق، 2000.

7. ماركس، كارل؛ انجلس، فريدريك. *البيان الشيوعي*. ترجمة: خالد بكداس، ط4، دار الفارابي، بيروت.

المجلات والدوريات:

- مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي بيروت؛ باريس، ع 140–141، ربيع –صيف 2007.

القواميس والمعاجم:

- الحميري، نشوان بن سعيد. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم. دار الفكر المعاصر، بيروت،1999.
- مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. ط2، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1972.
- مسعود، جبران. معجم الرائد. ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.